IUGJEPS
Vol 29, No 3, 2021, pp 300 -328

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2020-06-21)، تاريخ قبول النشر (2020-07-25)

اسم الباحث: أ. الحارث طه محمود سيت

اسم الجامعة والبلد: قسم التربية- كلية التربية-جامعة بيشة- المملكة العربية السعودية

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: aseet@ub.edu.sa

المقام النبوي في ضوء سورة الأحزاب دراسة موضوعية

https://doi.org/10.33976/IUGJIS.29.3/2021/12

الملخص:

تتابعت الآيات مبينة شأن النبي ﷺ وآل بيته، ومشرعة للآداب الخاصة بهم. وقد تعلم الصحابة تلك الآداب وتناقلوها جيلاً بعد جيل، إلا أن طول العهد، وغلبة الهوى، كان له بالغ الأثر في تغيُّر بعض من المفاهيم الإيمانية، فانقسم بعض الناس في ذلك طوائف فجاف مقصر لذلك الجناب الكريم، وأهوج متطاول على الرسول العظيم، وآخر مبتدع مخالف للنهج القويم، فكانت هذه الرسالة بياناً لعظم حق النبي، وحق آل بيته الكرام من خلال سياقات الآيات الواردة في سورة الأحزاب، وقد استخدم الباحث المنهج التحليلي، وقد عني البحث بمواضع تشريف النبي ﷺ في سور الأحزاب من خلال تتبعها، وتفسيرها تفسيرا موضوعياً. وقد خلص الباحث إلى جملة من النتائج كان من أهمها: إن الله عز وجل قد تكفل برفع الحرج عن نبيه في كل الأمور والتشريعات التي ألزمه بها قال تعالى: (مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ)(الأحزاب:38)، فما فرض الحكيم العليم تشريعاً إلا لحكمة بالغة منه سبحانه وتعالى. ومن أهم التوصيات التي يوصي بها الباحث، دعوة المؤسسات البحثية، ممثلة في الباحثين المتخصصين في مجال القرآن الكريم وعلومه، إلى العناية بالمقام النبوي من خلال سياقات القرآن الكريم، ومحاولة استجلاء الحكم من ورائه، والعمل على تبسيطه وتقريبه لأفهام العامة.

كلمات مفتاحية: تفسير موضوعي، سورة الأحزاب، مقام النبي، فضل الرسول.

The Prophet's social standing in the light of Surat and that-Objective study-

Abstract:
Prophet Muhammad peace be upon him had a significant social standing, so, the ayats of the Holy Quran have been shown this great social standing for him and for his family, this respect has been passed to the prophet Muhammad's friends and people who surrounded him from generation to another generation. However, the length of time and other elements had to influence the faith concepts and beliefs about the social standing of the prophet. People after the prophet's friend's generation had divided into different categories: who Failed to perform the prophet's right and others who Bucked the correct path of following the prophet's curriculum. So, this study aims to investigate the significant social standing of the prophet Muhammad and his family through analyzing the ayats of Surah Al-Ahzab. This study ended up with many results one of which is that Allah protects the prophet and his reputation, so hundreds of ayats show that. Indeed, all the rules and regulations of the Islamic religion indicate that. finally, one of the main recommendations of this study is that call the researcher institutions to conduct more research that aims to show the Holy Quran's messages which relevant to prophet Muhammad and respect to his social standing.

Keywords: Objective interpretation, Prophet social standing, Surah Al-Ahzab

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آلة وأصحابه أجمعين.. وبعــد: فقد كرم الله هذه الأمة بأن جعل شريعتها خاتمة الشرائع والأديان، قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، صالحة لكل قوم في كل زمان ومكان، وأختار لها خير رسله وأشرفهم وأعده لحمل هذه الأمانة العظيمة، فأدى رسالته على الوجه الذي ارتضاه له ربه. وقد تلقى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة منذ بدأ الوحي وحمل على عاتقه دعوتها وتبليغها، فقيض الله له من رجال هذه الأمة من كان عونا له فعاش النبي صلى الله عليه وسلم حياته بين أظهرهم يبلغ رسالة ربه. وكان من لوازم هذه المخالطة والمعاشرة أن يحفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قدره بينهم، ويبين لهم – ولمن بعدهم – منزلته، فجعلت آيات الكتاب العزيز تنزل متتابعة حسب الوقائع والأحداث مبينة شأن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلوا منزلته عند رب العالمين، ومشرعة للآداب الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ (الحجرات:2) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةً ﴾ (المجادلة:12) وغيرها من الآداب والتشريعات التي جاء القران الكريم داعياً إلى التخلق بها والتزامها. وقد تعلم الصحابة الكرام تلك الآداب وعلموها من بعدهم وتناقلوها جيلاً بعد جيل إلا أن طول العهد وبعد المدة وغلبة الهوى مما كان له بالغ الأثر في تغير المفاهيم الإيمانية والعقائد الراسخة فانقسم الناس في ذلك شيعاً وطوائف فجاف مقصر لذلك الجناب الكريم وأهوج متطاول على الرسول العظيم وأخر مبتدع مخالف للنهج القويم، فألقى الله في نفسي الهمة، وأوقد في داخلي العزيمة في أن أكتب هذا البحث الذي عنونته بـــــــــــــ**((المقام النبوي في ضوء سورة الأحزاب – دراسة موضوعية –))** أعملت فيه غايت جهدي في دراسة سورة الأحزاب دراسة موضوعية كان هدفي الرئيس فيه التركيز على الآيات التي ورد فيها ذكر للنبي وال بيته، إما بأحكام، أو توجيهات، أو أوامر ونواهي، أو خطابات للمؤمنين فيها تشريعات خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأصل من خلالها إلى غاية مقصدي من هذه الدراسة وهو بيان علو ورفعة مقام النبي وال بيته عند الله تعالى وعند المؤمنين، وكيف خصه الله تعالى بمنزلة عظيمة دون غيره.

مشكلة الدراسة:

وتتمحور المشكلة في الإجابة على الأسئلة الآتية:

1. ما أوجه تكريم وتشريف الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب؟
2. كيف يمكن الرد على شبهات المستشرقين والطاعنين في جملة الأحكام الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته؟

أهداف الدراسة:

1. بيان المقام النبوي الرفيع الذي كرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم واختصه به من خلال سورة الأحزاب.
2. إبراز العناية الإلهية من الله تعالى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان قدره الشريف في كل موطن.

3. الرد على الشبهات التي أثارها المستشرقون والذين اتخذوا من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومن سيرته مدخلاً للطعن في هذا الدين الحنيف، والرسول العظيم.
4. الوقوف على الأسرار البلاغية واللطائف البيانية في الخطاب القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم التي تبرز مكانته.
5. إظهار الترابط والتناسب بين موضع السورة ومضمونها ودلالتها.
6. استجلاء الحكم والأحكام الجليلة الواردة في سورة الأحزاب.

أهمية الدراسة:

1. أنها تتناول الآيات الواردة في حق خير البشرية محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب بالدراسة الموضوعية الموسعة التي تبرز من خلالها علوم المنزلة والمكانة له صلى الله عليه وسلم.
2. تعرضت الدراسة لحقوق النبي صلى الله عليه وسلم والآداب التي ينبغي للمسلم أن يتخلق بها معه صلى الله عليه وسلم، حتى بعد وفاته، فلا يظن أحد أن هذه الآداب لمن عاصروه من الصحابة الكرام فقط، بل هي شاملة له مع جميع أمته.
3. بينت الدراسة – من وجهة نظر الباحث – الموقف الصحيح القويم تجاه الشبه التي يثيرها الحاقدون على الإسلام من المستشرقين وأعداء الدين على النبي صلى الله عليه وسلم، ويسعون من خلالها لطعن في هذا الدين العظيم.

الدراسات السابقة

بعد مراجعة لما حوته المكتبة الإسلامية من المؤلفات حول موضوع مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان فضله وال بيته، في القران الكريم، وفي سورة الأحزاب على وجه الخصوص، فقد وقف الباحث على عدد من الرسائل المتصلة بذات الموضوع والتي استفاد منها الباحث استفادة كبيرة ومن هذه الرسائل:

1. التوجيهات التربوية في سورة الأحزاب دراسة موضوعية تطبيقية، للباحثة سناء سالم مشعبي، رسالة ماجستير 2018، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا.
2. النداءات الإلهية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، للباحث عودة عبد الله، بحث محكم في مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، 2016، مج (16) عدد (2).
3. النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ضوء سورة الأحزاب دراسة موضوعية، رسالة ماجستير للباحث محمد بولقصاع، إشراف أ.د محمد الزغول، جامعة آل البيت، الأردن 2010م.

وقد تميز هذا البحث عن غيره من ناحية تناوله لسورة الأحزاب والموضوعات الواردة فيها وربطها بالرد على الشبهات التي أُثيرت حول موضوعات ووقائع مرتبطة بسورة الأحزاب.

منهج البحث

لقد سلك الباحث المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي، حيث قام الباحث بعمل دراسة شاملة لسورة الأحزاب، وبيان أن هدف رئيسي من أهدافها هو النبي صلى الله عليه وسلم وال بتيه الإطهار، وبلوغ الكمال في تعظيم مكانته ورفعة منزلته، ثم بعد ذلك انتقل الباحث إلى الهدف من هذه الدراسة، وهو الوقوف على الآيات التي جاء فيها بيان لحق النبي وأهل بيته وفي هذا الباب بين الباحث فيه عظم القدر والمكانة، والمنهج القويم في حب هذا النبي الكريم، نظر من خلالها الباحث في كتب التفسير وأنتقى منها وأنتخب من أقوالهم ولطائف إشارتهم ما فيه دلالة على جلالة هذا الجناب العظيم وأعمل بعدها قلمه في الرد على الشبهات التي نفث بها المستشرقين وأصحاب الهوى سمومهم للطعن والنيل من هذا النبي العظيم، رداً قائماً على الحجة والبرهان العقلي والنقلي. فاجتهد الباحث غاية الاجتهاد في الذَّود عن حياض الحضرة النبوية؛ طمعاً في المعية المحمدية؛ وأملاً في أن يكون ممن عناهم النبي بقوله: "من أشد أمتي لي حباً ناسٌ يكونون بعدي، يوّد أحدهم لو رآني بأهله وماله"(1). وقد اقتضت هذه الدراسة أن أقسم البحث على النحو التالي:

المبحث الأول: بين يدي سورة الأحزاب وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم السورة.

المطلب الثاني: فضلها ومكان نزولها وعدد آياتها.

المطلب الثالث: أغراض ومقاصد السورة.

المطلب الرابع: مناسبات السورة.

المبحث الثاني: فضل ودلالة رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: النداءات الإلهية للنبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين.

المطلب الثالث: رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قدوة وأسوة.

المطلب الرابع: فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على نساء العالمين.

المبحث الثالث: الرد على الشبهات المتطاولين على المقام النبوي وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الاول: شبهة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش.

المطلب الثاني: شبهة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثالث: شبهة تحريم نكاح زوجات النبي بعده صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول/ بين يدي سورة الأحزاب

1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بأهله وماله (ج4/ص2178/حديث رقم 2832).

المطلب الأول / اسم السورة.

سورة الأحزاب، وهذا اسمها الوحيد في المصاحف وكتب التفسير والسنة ولا يعرف لها اسم غيره، وسميت بهذا الاسم استناداً إلى حديث زر[2] عن أبي بن كعب[3] أنه قال: " كم تقرؤون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثا وسبعين آية..."[4]، ويذكر صاحب التحرير والتنوير وجه تسميتها بذلك: "هو ما ذكر فيها عن أحزاب المشركين، أرادوا غزو المسلمين في المدينة فردّ اللّه كيدهم وكفى اللّه المؤمنين القتال"[5]، ومن الألقاب التي درج تلقيب السورة بها هو تسميتها بالفاضحة، إلا أنني لم أجد في تسميتها بهذا اللقب نص يمكن الاستناد عليه في صحة هذه التسمية.

المطلب الثاني / فضلها ومكان نزولها وعدد آياها.

ورد في فضل سورة الأحزاب عدد من الآثار المنسوبة إلى الصحابة، إلا أنني تتبعتها ووجدتها كلها أحاديث موضوعة ليس لها أصل، إلا أن لسورة الأحزاب ما للقران الكريم من الفضل والعظمة والرفعة والهداية للمسلمين. وسورة الأحزاب سورة مدنية بإجماع العلماء [6]، آياتها ثلاث وسبعون آية، وترتيبها في المصحف السورة الثالثة والثلاثين.

المطلب الثالث / أغراض ومقاصد السورة.

تعددت مقاصد سورة الأحزاب العامة، والمتأمل يجد أنها تركز على ثلاثة أغراض ومقاصد أساسية: المقصد الأول: يدور حول " الاستسلام لله والانقياد لقدره...، وذلك الإيقاع الهائل العميق: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ (الأحزاب:72)، هذا هو الغرض الرئيس الذي جاءت السورة لتأكيده وغرسه في نفوس عباد الله المؤمنين من كمال الصدق والإخلاص في الرجوع لله تعالى وتمام التوكل عليه، فالتزام الأوامر اللاهية إنما هو قائم على الانقياد والتسليم"[7]، المقصد الثاني: مقصد رئيس يدور حول سيرة النبي وبلوغ أعلى الرتب في تنزيهه وتشريفه مع آل بيته والمؤمنين معه، يقول ابن عاشور:" افتتاح السورة

2/ زر بن حبيش بن حباشة بن أوس الأسدي، الإمام القدوة مقرئ الكوفة. حدث عن: عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعثمان، وعلي. وحدثوا عنه: هم، والمنهال بن عمرو، وعبدة بن أبي لبابة. قال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث. وعن عاصم، قال: ما رأيت أحدا أقرأ من زر. قال أبو عبيد: مات زر سنة إحدى وثمانين. سير أعلام النبلاء (60/166/4)، تذهيب التهذيب (1 / 235)

3/ أبي بن كعب ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، سيد القراء، شهد العقبة وبدرا ، وجمع القرآن في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم- وعرضه عليه، وحفظ عنه علما مباركا ، وكان رأسا في العلم والعمل، اختلف في تاريخ وفاته رحمه الله، فقيل: مات في خلافة عثمان سنة ثلاثين، وقيل هو أثبت الأقوال. سير أعلام النبلاء (342/1-346)، أسد الغابة (34/168/1).

4 / أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الزنى وحده، "ذكر الأمر بالرجم للمحصنين إذا زنيا قصد التنكيل بهما" (ج10/ص274/حديث 4429). قال ابن حزم: "هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه." يتظر المحلى (ج12/ص175).

5 / ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج21/ص245).

6 / الرازي، مفاتيح الغيب (ج25/ص165)

7/ سيد قطب، في ظلال القرآن (ج5/ص2818).

بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم مؤذن بأن الأهم من سوق السورة يتعلق بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم "[8]، المقصد الثالث: الحديث عن خطب جلل كان قد أهمَّ عباد الله المؤمنين في المدينة وهو تكالب الأحزاب عليهم، وما جرى في تلك الغزوة من أحوال شتى، صبر المؤمنين، ونكث اليهود والمنافقين، وتعاون الكفرة والمشركين، ومن المقاصد التي يمكن أن نستخرجها من السورة كمقاصد وغايات جاءت السياقات القرآنية للدلالة عليه: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالالتزام تقوى الله وتمام التوكل عليه ومخالفة المنافقين والكافرين، وتقويم المجتمع وتصحيح المفاهيم الخاطئة من مفاهيم اجتماعية وأسرية وعادات وتقاليد غير سوية، تكريم المرأة ورفع الظلم الواقع عليها من جراء العادات والتقاليد الجاهلية، فحرم الظهار ورتب عليه أشد وأقسى الأحكام، والتأكيد على الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين، وحرمت نساء النبي صلى الله عليه وسلم على عامة الناس لأنهم أمهاتهم، وفضح المنافقين وبيان موقفهم من المؤمنين، وبيان قبح صفاتهم وإضمارهم السوء بالمسلمين، وبيان غدر اليهود، ونكثهم العهود والمواثيق، وأخيراً بيان عظم أمر النسب في الإسلام وحرمت ادعائه بغير حق، وتأكيد ذلك بذكر قصة زيد وزينب رضي الله عنهم.

المطلب الرابع / مناسبات السورة.

باب علم المناسبات باب واسع، فمنه المناسبة بين اسم السورة ومحورها، والمناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمها، وغيرها من أنواع المناسبات التي ذكرها العلماء، والمتدبر في سورة الأحزاب لا يخفى عليه – ولو بإعمال قليل نظر – ما في هذه السورة من لطائف المناسبات، وبديع النظم وجميل التناسق، ومن هذه المناسبات:

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحاورها: لما كان محور رئيس من محاور السورة هو تمام الاعتقاد بالله تعالى والتوكل عليه والاستسلام له، ناسب أن يطلق اسم الأحزاب على هذه السورة، فحادثة الأحزاب كانت دليلاً واضحاً ضربه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام لتوكلهم واعتصامهم بالله تعالى، فزادهم هذا الموقف العصيب إيماناً بالله تعالى، ثم وضحت السورة في خاتمتها ثمرة التسليم والتوكل عليه في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[9] (الأحزاب:52).

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها: في المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها لفتة لطيفة، فافتتاح السورة بنداء النبي صلى الله عليه وسلم وأمره، واختتام السورة بنداء المؤمنين وأمرهم، فاتحد النداءان في ذات الأمر وهو الأمر بتقوى الله تعالى والحث على التزام الأمانة التي عرضها الله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ (الأحزاب:72)، وبيان عقوبة من خانها، وجزاء من التزم بأدائها، فكان ختامها من رد العجز على الصدر: ﴿ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:73)، ثم في اختتام الآية الأخيرة من

8 / ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ج21/ص249).

9/ ينظر مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (ج6/ص67-66).

السورة باسمي الغفور الرحيم بالغ المناسبة، فلا كمال إلا له، وهو يعلم سبحانه تقصير عباده في قيامهم بواجبهم تجاه الأمانة المناطة بهم.

المبحث الثاني/ فضل ودلالة رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب

لما كان من أهم أغراض سورة الأحزاب وهدف رئيس من أهدفها هو بيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم، كان من الضروري عقد هذا المبحث لبيان أوجه تشريف النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان فضل ودلالة رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وال بيته، وقد بين الباحث ذلك في مطالب هذا المبحث.

المطلب الأول/ النداءات الإلهية للنبي صلى الله عليه وسلم

اشملت سورة الأحزاب على خمس نداءات من الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم جاءت كلها بصفة النبوة كانت هي مدار الدراسة في هذا البحث للوقوف عليها ومعرفة الأحكام التي تضمنتها وبيان موافقتها لواحد من أهم أهداف السورة وهو التأكيد على شرف خاتم الأنبياء والرسل ورفعة مقامه صلى الله عليه وسلم وقد اقتصرت في هذا المستخلص –لضيق المقام– على النداء الأول لبيان المنهج والطريقة التي سلكتها مع باقي النداءات الأربع في السورة.

النداء الاول: قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب:1).

سبب نزولها: ذُكر في سبب نزول افتتاحية سورة الأحزاب عدة أقوال: منها ما ذكره الواحدي أنها نزلت في أبي سفيان ورهط معه قدموا المدينة بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي الله صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم فأمر عمر أن يخرجهم من المدينة، فأنزلت[10]، وقيل إنها نزلت في رسول الله كان يلين الجانب لليهود طمعاً في إسلامهم[11].

وجه الدلالة من الآية: هذا النداء الأول في السورة افتتحت السورة به؛ لأن هذا هو الغرض المراد، فتضمن الأمر بتقوى الله تعالى بوصف النبي صلى الله عليه وسلم بذكر النبوة دون ذكر اسمه تنويهاً بفضله، كما نادى غيره من الأنبياء في ذات السورة، فوصف النبوة دال على الرفعة، وعبر به لاقتضاء مقصود السورة في بيان مقام النبوة لتقريبه وإعلائه إلى جنابه[12].ولتعقيب النداء بالأمر من جمال التوطئة وحسن التقديم ما يكون له بالغ الأثر في نفسه صلى الله عليه وسلم لتهيئتها

10/ ينظر الواحدي، أسباب النزول للواحدي (ج1/ص351).

11 / الزمخشري، الكشاف (ج3/ص519)

12/ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ج15/ص274).

لتلقي الأوامر، وفي دلالة الأمر لطيفةٌ فالأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، فكيف يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بتقوى الله وهو أتقى الناس وأخشاهم لربه تعالى ؟

وقد اختلف أهل العلم في توجيه هذا الأمر فقال بعض المفسرين: أن هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى فهو تنبيه لعباد الله المؤمنين بأنه إذا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم هو أتقى الناس مأمور بالتقوى فأنتم داخلون في هذا الأمر من باب أولى، ملزمون به ورأى بعضهم أنه خطاب لعباد الله من المؤمنين جاء على صيغة الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لِيَشْرَعَ الله تعالى لأمته ما شاء على حال نبيه صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم إنما هو أمرٌ بالثباتُ والمداومة عليه والازديادُ منه، فإنَّ لتقوى الله تعالى باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا ينال مداه ولا يُبلغُ أخره[13] ، ومن هذا القول أيضاً يمكن أن يُستَدلَ على أنه أمر لعباد الله المؤمنين بالتقوى لمن جانبها ومن هو متقي فعليه أن يداوم ويستمر ويزداد امتثال لما أمر به نبيكم وتصديقاً لقوله تعالى ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:21). ففي النداء بالغ التعظيم لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني/ الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين

أثنى الله تعالى على خير رسله بحميد الصفات وجميل الخصال فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4)، وقال ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، فلما جمع الله له من المحاسن أكملها وأتمها، اختتمها بالمبالغة في تعظيم قدره ورفعة منزلته بقوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:6)، فأقر الولاية العامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين جميعا وقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمهم، وحقه آثر لديهم من حقوقهم، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم على أنفسهم، وأن يبدلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرفهم عنه، لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين[14][15].

فالآية استئناف لما كان من أمر إبطال بنوة زيد بن حارثة ﷺ، فأثار ذلك تساؤلاً عاماً هو مدى صلة المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم وصلتهم بعضه ببعض، فجاءت الآيات لتبن نوعية هذه العلاقة ؛ بأنه صلى الله عليه وسلم أولى بكل مؤمن من أنفس المؤمنين، ولفظ أولى[16]: أي أشد ولاية وقرباً، والقرب هنا قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة وتقديم على النفس والمال والولد، روى البخاري أن عمر بن الخطاب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ

13/ينظر الزمخشري، الكشاف (ج3/ص519)؛ الصابوني، صفوة التفاسير (ج2/ص469)

14 ينظر الزمخشري، الكشاف (ج3/ص532).

15 ذكر العلماء لزول الآية سبباً هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم: يستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت. ينظر الألوسي، روح المعاني (ج11/ص149).

16 اسم تفضيل من الولي، وهو الأحق والأقرب والأجدر، المعجم الوسيط، باب الواو، ولي، (ج2/ص1057)

كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ،صلى الله عليه وسلم: «لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ،صلى الله عليه وسلم: «الآنَ يَا عُمَرُ»[17]، والكلام على تقدير مضاف، أي: أولى بمنافع المؤمنين أو بمصالح المؤمنين، فهذا المضاف حذف لقصد تعميم كل شأن من شؤون المؤمنين الصالحة، لذا جاء لفظ الولي مطلقاً غير مقيد[18]، ويذكر المفسرون معاني ودلالات أخرى لمعنى ومفهوم لفظ أولى في الآية، منها قول ابن عطية: " أولى بهم من أنفسهم لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: " إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها "[19][20]، وقيل: أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم أولى. وقيل أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم، أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه. والمعاني في جملتها تدور في فلك واحد وهو تقديم النبي صلى الله عليه وسلم على النفس في كل موضع وحال، فهو الأراف والأرحم بالمؤمنين صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته"[21]، وفي حديث أخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:6)، فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينا أو ضياعا، فليأتني فأنا مولاه "[22].

وفي قراءة لابن مسعود ﷺ: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، بزيادة "وهو أب لهم"[23] ، وقال مجاهد: "كل نبيّ فهو أبو أمّته"[24]، وعلى هذا المعنى صار المؤمنين إخوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:10)، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين، وزوجاته الطاهرات أمهات للمؤمنين،﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:6) أي: أن زوجات[25] النبي مثل الأمهات للمؤمنين في

---

17 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (ج8/ص128/حديث 6632).

18 ينظر الزمخشري، الكشاف (ج3/ص532)؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج21/ص266).

19 أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة،كتاب الرقاق، باب الإنتهاء عن المعاصي (ج8/ص120/حديث 6483)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (ج4/ص1789/حديث 2284) واللفظ للبخاري.

20 ينظر ابن عطية، المحرر الوجيز (ج4/ص370).

21 أخرجه البخاري ، كتاب الفرائض ، باب باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من ترك مالا فلأهله» (ج8/ص150 / حديث 6731).

22 أخرجه البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك ديناً (ج3/ص118/حديث 2399).

23ينظر الزمخشري، الكشاف (ج3/ص523).

24ينظر الطبري، جامع البيان (ج15/ص414).

25 تشبيه بليغ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، واقتصر على المشبه والمشبه به ، ووجه التشبيه المكانة والتعظيم.

التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وقيل: لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات، فلا يدخل فيه الخلوة والنظر والإرث ونحو ذلك فهن كالأجنبيات(26).

ولعل من أبلغ ما قيل في وصف هذه الولاية التي من الله بها على النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكره سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية قائلاً:" عاد القرآن الكريم بمجرد أن قامت للدولة قائمتها إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب...، وقرر في الوقت ذاته الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي ولاية تتقدم على قرابة الدم، بل على قرابة النفس!: وقرر الأمومة الشعورية لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة لجميع المؤمنين.

وولاية النبي صلى الله عليه وسلم ولاية عامة تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول– عليه صلوات الله وسلامه– ليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحي من ربه: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(27)، وتشمل مشاعرهم فيكون شخصه صلى الله عليه وسلم أحب إليهم من أنفسهم. فلا يرغبون بأنفسهم عنه ولا يكون في قلوبهم شخص أو شيء مقدم على ذاته...، ويشد في نهاية الأية هذه الإجراءات كلها إلى العروة الأولى، ويقرر أن هذه إرادة الله التي سبق بها كتابه الأزلي: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأسراء:58) ... فتقر القلوب وتطمئن وتستمسك بالأصل الكبير الذي يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم "(28).

والآية في دلالتها بلغت ذرى الكمال في تشريف خير البرية بما صُدِرَ في مطلع الآية من الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين كافة، وهو – صلوات ربي وسلامه عليه – أحق الناس بها وأجدر، وهذه الولاية العامة للمؤمنين في الدنيا والأخرة، أما في الدنيا فقد بينتها الأحاديث السابقة، أما في الأخرة فهي تتجلى في شفاعته صلى الله عليه وسلم لأمته وقيل: أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (الضحى:5) وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "إذا والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار"(29). فالآية جاءت في صدر السورة لتؤكد على هدف أساسي وركيزة من أقوى الركائز التي تُكَوِنُ مقاصد السورة الرئيسية، وهو بيان قدر النبي صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى وعند عباد الله المؤمنين.

26 ينظر الشنقيطي، أضواء البيان (ج4/ص280)؛ الألوسي، روح المعاني (ج11/ص149)؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج14/ص123)؛ الزحيلي، التفسر المنير (ج21/ص243).

27 رواه النووي في الأربعين النووية ، انظر الأحاديث الأربعين النووية مع ما زاد عليها ابن رجب وعليها الشرح الموجز المفيد (ج1/ص79) ، وقال فيه: "حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح".

28 ينظر سيد قطب، في ظلال القران (ج5/ص2828-2829).

29ينظر الطبري، جامع البيان (ج24/ص487)، وضعفه الهيثمي في الزوائد (ج8/ص163).

المطلب الثالث/ رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قدوة وأسوة

بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم رسله في زمان شاع فيه من سيء الأخلاق ودنيئها ما كان كفيلاً بتفريق أهل ذلك الزمان وذب العداوة بينهم، وتقطيع أواصر رحمهم، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم برسالة سماوية ودين حنيف قائم على توحيد الله وحده، شاملاً وجامعاً محاسن الأخلاق والمعاملات والآداب، فجمع الله على يد رسوله – صلوت ربي وسلامه عليه – مكان متفرقاً من القبائل، ووحد كلمتهم وأذاب العداوة بينهم، وأرسى دعائم الأخلاق، وأكد مكارمها، فأقام صرح صادع بالحق في وجه كل باطل.

وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليصل إلى هذا المدى من الصلاح والطهر بالمجتمع الجاهلي، إلا بتوفيق الله، وإصلاحه له، فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً بشيء إلا وهو أول الممتثلين له، وما كان ناهياً عن شيء إلا وهو أول المجانبين له، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة حية للتشاريع الربانية التي جاء بها مبلغاً إياها عن ربه تبارك وتعالى، فجاء خطاب الله إلى الناس عامة أن يقتدوا بهذا الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:21) على خلاف بين المفسرين في دلالة هذا الخبر على أنه عتاب، وقيل: مدح للمؤمنين، وقيل: أمر بالإتساء[(30)] ، أي هو نفسه صلى الله عليه وسلم قدوة يتأسى بها كل الناس في أفعاله وأقواله وأموره كلها، ويمكن حمل الآية على وجهين:

أولهما: لما كان الخطاب في الآيات السابقة توبيخاً للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، جاء الخطاب في هذه الأية للجميع – للمؤمنين وللمنافقين– أي: اقتدوا جميعاً برسول صلى الله عليه وسلم ، في ما كان منه في أمر غزوة الأحزاب، لأنه كان أسبقهم في الحرب، وَوَاسَاهُم بنفسه في مواطنها، فكان أصبرهم على جلدها، فهو أسوة في صبره وثباته، وتضحيته وجهاده، ومقاساته الشدائد، فقد أوذي بضروب الأذى، فوقف ولم ينهزم، وصبر ولم يجزع، فاستنوا بسنته وانصروه، ولا تتخلفوا عنه[(31)]، روي عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:21) قال: "مواساة عند القتال"[(32)]، يقول ابن كثير:" هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ،صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أُمِرَ الناس بالتأسي بالنبي ،صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته وجهاده وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين "[(33)]. ومراده الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وصبره وتجلده في غزوة الأحزاب، وما كان من تحزب الكفار والمنافقين واليهود وقبائل العرب على دولة الإسلام والمسلمين، فكان صلى الله عليه وسلم رابط الجأش متوكلاً على الله معتمداً عليه، فأنجز الله وعده، فنصره على أعدائه.

---

30 ينظر الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل (ج2/ص914).

31 ينظر الهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (ج22/ص472).

32الماوردي، النكت والعيون (ج4/ص388).

33 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج6/ص 391).

ثانيهما: لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ودعوته خاتمت الدعوات، لَزَمَ أن يكون تشريعه باقياً يبقى ببقاء هذه الشريعة، والرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس جميعا قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:28) فخطاب الآية على عمومه في كون النبي صلى الله عليه وسلم قدوة للناس جميعاً ، يقول الشوكاني: " وهذه الآية وإن كان سببها خاصا فهي عامة في كل شيء، ومثلها: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر:7)، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (ال عمران:31)"[34]، أي أنه صلى الله عليه وسلم قدوة في شتى مناحي الحياة وجميع جوانبها، في أخلاقه مع أهل بيته رضي الله عنهم حيث كان يحدثهم بأرق الكلام وألينه، وكان يلاعبهم ويلاطفهم، ويدخل السرور إلى قلوبهم، ويعدل بينهم، قالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ،صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ،صلى الله عليه وسلم معه"[35]. وتقول عنه أيضًا: "كان بشرًا من البشر: يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويخدم نفسه"[36]، وكان صلى الله عليه وسلم قدوة في تعامله مع من حوله رفيع الخلق مع صحابته رضوان الله عليهم، فلم يكن يستعلي على أحد منهم، يقابلهم – صلوات ربي وسلامه عليه – بالوجه البشوش المبتسم، ويكلمهم باللطف واللين، ويشاركهم في أفراحهم وأحزانهم، وكان يعامل أصحابه جميعًا معاملة واحدة، حتى يظن أحدهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعامل أحدًا بمثل ما يعامله من الرفق واللطف، قال جرير بن عبد الله ﷺ "ما حجبني النبي ،صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي "[37].

وقد جاءت الآيات في سياقاً كان الأبلغ في كمال تشريفه صلى الله عليه وسلم وبيان قدره الكريم قال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:21) فافتتحت الآية بالإخبار عن أصل عظيم من أصول الدين الحنيف وهو التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الجملة: خبرية لفظًا، إنشائيةً معنًى قصد بها الأمر[38]، وعبر بلفظ "كان" المقتضيه للرسوخ[39]، ثم ذكر بعدها ذات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بوصف الرسالة لأنه حظ الخلق منه ليقتدوا بأفعاله وأقواله، ويتخلقوا بأخلاقه وأحواله[40]، والأسوة: أصلها (أسا) وهي القدوة[41]، وفيها لغتان: بضم الهمزة (أُسوة) وهي قراءة عاصم، وبكسر الهمزة (

34 الشوكاني، فتح القدير (ج4/ص312).

35 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (ج4/ص2129/حديث رقم 2770).

36 أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند عائشة رضي الله عنها (ج43/ص263/حديث 26194). وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ص670).

37 أخرجه البخاري ، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (ج8/ص24/حديث رقم 6089)؛ ومسلم ، باب من فضائل جرير ابن عبد الله (ج4/ص1925، حديث رقم 2475).

38 الهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (ج22/ص473).

39 البقاعي، نظم الدرر في تناسب الأيات والسور (ج15/ص323).

40 المرجع السابق.

41 الرازي، مختار الصحاح (ج1/ص18).

إِسوة) وهي قراءة الباقين[42]، وجاء وصف الرسول العظيم بالقدوة الحسنة تكريماً له وهو أحق به صلى الله عليه وسلم، وقوله ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب:21) أي يأمل ثواب الله تعالى ونعيمه، ويصدقون باليوم الأخر وبحصوله، وأنه كائن لا محالة، و يرجون رحمة الله فيه، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى، وقوله تعالى ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:21) معطوف على كان، أي: ولمن ذكر الله في جميع أحواله ذكرا كثيرا، وجمع بين الرجاء لله والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله ،صلى الله عليه وسلم [43].

ودلة الآية على تشريف النبي صلى الله عليه وسلم وعلو قدره من أوجه عده منها:

أولها: أن الله تعالى كرم نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعله أسوة وخير أسوة للمؤمنين، فهو قدوة لهم في كل خير، في حسن ظنه بالله تعالى وتعلقه به، في أخلاقه ولين جانبه، في حرصه على هداية الناس، في تعامله مع أهل بيته ومع أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فأختاره الله تعالى وفضله دون غيره صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: أن الله تعالى لم ذكر أمر الأسوة وهو أمر عظيم وأصل من أصول الدين وصف النبي صلى الله عليه وسلم بوصف الرسالة، فهو رسوله ومبلغ شرعه قال تعالى ﴿رَسُولِ اللَّهِ﴾ (الأحزاب:21) فأي تشريف وأي تكريم للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى بأن يؤكد صدق ما جاء به بوصفه رسوله.

ففي الآية دلالة على فضل بالنبيء، صلى الله عليه وسلم والاقتداء به، وأنه الإسوة الحسنة في كل الأمور، فلم يأتي الإتساء بالرسول صلى الله عليه وسلم متعلق بفعل أوحال واقفاً عليه، وإنما جعل في عمومه لدلالة على فضل هذ الرسول الكريم، وعظيم شأنه، يقول الطاهر ابن عاشور: " وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول صلى الله عليه وسلم دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه "[44].

المطلب الرابع/ فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على نساء العالمين

حرص النبي منذ بدأ الدعوة على تأسيس بيت النبوة على ركائز قوية أساسها طهر النفس، وسمو الخلق، وقد خص الله نبيه وكرمه بأن اختار له من النساء أشرفهن، وأطهرهن، وأكملهن، قال صلى الله عليه وسلم:" كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ "[45] وتتابعت الآيات في بيان هذا الحق العظيم قال تعالى في صدر سورة الاحزاب ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

42البغدادي، السبعة في القراءات (ج1/ص250).

43 الشوكاني، فتح القدير (ج4/ص312).

44 ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج21/ص303).

45/ أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون}، (ج4/ص158/حديث 3411) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (ج4/ص1886/ حديث 2431).

(الأحزاب:6) فجاءت هذه التسمية خاصة بهن لتكريمهن وتبجيلهن وتعظيماً لحقهن[46]، وقد ذكر العلماء في هذا الباب مسائل بمتعلقات هذه الأمومة(47) وماهيتها ومن لطيف ما ذكر ما أشار إليه الشيخ أحمد حطيبه في تفسيره إلى تقسيم الأمومة إلى قسمين: " أمومة في الحرمة وأمومة في المحرمية: 1/ أمومة الحرمة أنه يحرم عليه أن ينكحها، أي: يتزوجها، فأمه في النسب محرمة عليه وهو محرم عليها. 2/أمومة المحرمية: أنه لا يحرم عليه أن يدخل عليها ويسافر معها. فنساء النبي، صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين في الحرمة وليس في المحرمية، فيحرم على أي مؤمن أن يتزوج نساء النبي، صلى الله عليه وسلم بعده أو يطلب نكاحهن، وهن لسن محارم لهم، فلا يجوز لأحد المؤمنين أن يسافر مثلاً مع زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على أنه محرم لها، فهن أمهاتنا في التحريم لا في المحرمية.."[48].

ويقول القرطبي "شَرَفَ الله تعالى أزواج نبيه، صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات. وقيل: لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التبني. وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس "[49]. وتتولى الآيات في السورة لتؤكد على فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم فبعد أن سماهن أمهات المؤمنين وحفظ لهن قدرهن بين الناس، جاءت آيات التخيير في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:28)، لتبين للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين مقدار الطهر الذي حمله قلوبهن في تفضيلهن واختيارهن الله ورسوله وما أعده الله تعالى لهن من رضوان الله ورسوله و نعيم الدار الاخرة على الحياة الدنيا وترف العيش فيها ونعيمها، فخير رسول الله زوجاته واحدة تلو الأخرى فكان اختيارهن تقديم الله ورسوله ،فرؤى الفرح في وجه رسول الله ،صلى الله عليه وسلم لما أقر الله في قلبه من رغبتهن فيه وفي ما أعده الله لهن، فشكر لهنّ الله ذلك، وحفظ لهن ذلك الخيار فأنزل الله تعالى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ (الأحزاب:52) (50).

ثم بين الله تعالى بعد ذلك جزاء اختيار زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ما عند الله ورسوله أن ضاعف لهن أجر عملهن الصالح ضعفي نساء الأمة، وفي نظير ذلك غلظ وضاعف لهن العقوبة إذا وقع منهن ما يوجبها، وما ذلك إلا لشرفهن المراد إظهاره، ومزيتهن في الطاعة والمعصية، "ولما كان أزواج النبي ،صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله تعالى ونواهيه قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب، وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف، وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات"[51]، وهذا

---

46 /ينظر حطيبة، تفسير أحمد حطيبة (ج254/ص3-10).

47 /اختلف المفسرون في هل المقصود بأمهات المؤمنين أنهن أمهات للرجال والنساء أم هن أمهات للرجال دون النساء على قولين ، ليس هذا مجال التفصيل فيها ،

48 / ينظر حطيبة، تفسير أحمد حطيبة (ج254/ص10).

49 / القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج14/ص123).

50 / ينظر الزمخسري، الكشاف (ج3/ص534).

51 / القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج14/ص123).

العقوبة في سياقها على تقدير الشرط، وليس من مقتضى الشرط الوقوع، وعقبت الآيات بصريح التفضيل لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم على سائر نساء العالمين، فهن الأكمل والأطهر والأعلى في القدر والمكانة، "بسبب صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن المضاف إلى الشريف شريف"[52].

قال تعالى مخاطباً زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم يُعَلِمُهن فيها مكانتهن وقدرهن ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (الأحزاب:32)، فنساء النبي صلى الله عليه وسلم حالة خاصة في الأحكام المتعلقة بهم، وفي فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى وعند رسوله الكريم، لذا " أعيد خطابهن من جانب ربهن وأعيد نداؤهن للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصه"[53]، فجاءت الآيات في بيان الآداب التي ينبغي أن يتحللن بها ليصلن إلى درجات الكمال المنشود لزوجات الأنبياء عليهم السلام، ومن تلك الآداب التي دلت عليها الآيات:

1. قيد الله تعالى ما خص به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من الشرف العظيم بتقواه عز وجل، فمخافة حكمه تعالى وطاعة رسوله، هو قيد هذا الخيرية التي خصكم بها، وبيان أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى.

2. نهى الله تعالى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن اللين في القول والخطاب عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة.

3. أمر الله تعالى زوجات نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقلن قولاً معروفاً: أي قلنا قولاً بعيد عن الريبة وإيجاد الطريق للمطامع.

أتبعه بعد ذلك بفضيلة من أسمى الفضائل التي ترقى بالمجتمع المسلم أرقى درجات الكمال، وهي فضيلة خاصة بالنساء إذا أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب:33) والتبرج: هو إظهار الزينة [54] فجاءت الآيات لترشدهن إلى كل خير وصلاح يرقى بهن ليكن أهل ذلك البيت الطاهر الشريف. وبعد أن بين لهن مواطن الشر والفتن ونهاهن عن مواقعتها، دلهن إلى الخير كله وما فيه الصلاح والرشاد، "ليربط قلوبهن بالله، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضيء الذي يستمددن منه النور، والعون على التدرج في مراقي ذلك الأفق الوضيء"[55].

قال تعالى ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (الأحزاب:33)، فاختتمت الآيات بالسبب والحكمة وراء تلك التوجيهات العظيمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:33) فهي متصلة بما قبلها إذ هي تعليل لما

52 / حطيبة، تفسير أحمد حطيبة (ج23/ص11).

53 / ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج22/ص6).

54على خلاف في التبرج قال مقاتل" أنها تلقي الخمار على رأسها،ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها" وقال قتادة:" وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج " وقيل " وحقيقته إظهار ما ستره أحسن " وإن اختلفت الأقوال إلا أنها تدور في فلك واحد وهو إظهار المرأءة للرجال شيئاً مما لا يجوز لغير محارمها ، سواءاً كان بالقول أو بالفعل.

55سيد قطب، في ظلال القران (ج5/ص2861)

تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي، وفيها من التلطف بإشعار معية الله تعالى لهن بأنه "بذاته العلية يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وهي رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت الطاهر، ثم في خضم تلك الدعوات إلى الفضيلة والكمال لا يغفل القران الكريم المكانة العظيمة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم " فهو يسميهم «أهل البيت» بدون وصف للبيت ولا إضافة.. فالتعبير عن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم"[56]، وما كان ما سبق إلى لغاية عظيمة تليق بالنبي وزوجاته الطاهرات ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:33) والمعنى يطهركم من درن ودنس الآثام التي تعلق بأرباب الذنوب والمعاصي، وختم الآية بغاية الامتنان عليهن بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب:33) أي لطيف بكم بأن اختاركن زوجاتٍ لنبيه الكريم فتكن في البيوت التي ينزل فيها القران والحكمة، خبيراً بحالكن وحال جميع خلقه.

56المرجع السابق (80/6).

المبحث الثالث: الرد على شبهات المتطاولين على المقام النبوي.

لما كان الزواج سبيلاً شرعياً قرره الرب تبارك وتعالى لاستمرار النسل البشري، أكد تقريره في سنن أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد:32) وفي حديث أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: الْحَيَاءُ وَالتَّعَطُّرُ، وَالسِّوَاكُ، وَالنِّكَاحُ"[57]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من تمثل ما بَلَغَ من تشاريع الله تبارك وتعالى، فأكرمه الله عز وجل بأن رخص له من الرخص ما لم تكن لغيره، ولم تحل لسواه صلى الله عليه وسلم، لتقر به نفسه ويتسرى فؤاده الشريف، وقد اتخذ أعداء الدين في هذه الرخصة والإباحة مدخلاً – وما هي لهم كذلك – لينفثوا ما خبث من أفكارهم الفاسدة في عقائد المسلمين من خلالها، وليطعنوا في مقام هذا النبي العظيم فتطاولوا غاية التطاول، واجترؤوا عظيم الاجتراء، فتكلموا في زواجه من زينب بن جحش وهي من كانت زوجة من تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حرمة التبني، وخاضوا في تعدد زوجاته، وغيرها من الشبه التي بثها أعداء الإسلام في مواضع شتى. فكان هذا المبحث الأخير من هذا البحث، لتفنيد تلك الشبه، والرد عليها بالحجة الدامغة والبرهان القوي، فيرتفع ما فيها من إشكال، ويتضح زيف تلك الدعاوى المغرضة.

المطلب الأول/ شبهة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش

شبهة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكيف صوروا ذلك الزواج المبارك بأنه نتيجة لقصة غرام وعشق بيْن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسيِّدة زينب رضي الله عنها وهي لا تزال على ذِمَّة رجلٍ آخَر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج زيداً بزينب بنت جحش رضي الله عنها، فلم يستقم أمر زواجهم وطلقها زيد ﷺ، فأنزل الله أمره لرسوله بزواجه من زينب، فقال المنافقون: تزوج محمد بحليلة ابنه، وضج من جاء بعد ذلك بزمن بالقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد هوى زينب وتمنى طلاقها من زيد حتى يتزوجها، وقد أورد المفسرون في تفاسيرهم بعض الروايات في بيان هذه القصة، وهي كثيرة في هذا الباب؛ منها الصحيح الذي يتماشى مع روح القرآن وفحوى دعواه، ومنها الباطل الظاهر ضعفه وكذبه، ولعل من أشهر تلك الروايات وأولاها بالعرض والرد هي رواية ابن جرير الطبري في تفسيره، ولعلي في هذا المقام أقتصر عليها دون غيرها؛ كون ابن جرير الطبري إماماً في التفسير – ولاريب في ذلك –، أما ما ذكره المفسرون من الأخبار في تلك القصة فإني أحيل القارئ لمطالعتها في مواطنها في كتب المفسرين[58]. ذكر ابن جرير الطبري – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾(الأحزاب:33) ما معناه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى زينب بنت جحش فأعجبته، وهي في حبال مولاه، فألقي في نفس زيد كراهتها لما علم الله مما وقع في نفس نبيه ما وقع، فأراد فراقها، فأمره رسول الله أن يبقي عليها وهو في نفسه أنها يتمنى فراقها، ولكن مخافة

57 أخرجه الترمذي في سننه ، أبواب النكاح ، باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه (ج2/ص382/حديث رقم 1080)، وقال الترمذي: "حديث حسن غريب".

58 ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج/6 ص424)؛ السيوطي، الدر المنثور (ج6/ص611)؛ ابن عطية، المحرر الوجيز (ج4/ص385-388).

ما تقوله العرب من زواج محمد بطليقة ابنه بالتبني"، ثم ساق الطبري روايتين مختلفتين من طريقين مختلفين، أولهما من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة، وثانيهما عن يونس عن ابن وهب عن ابن زيد. ونخلص مما أورده ابن جرير إلى شبهتين هي محل الرد والتمحيص.

الشبهة الأولى: وهي زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب وهي حليلة ابنه بالتبني، وقد نهى عن ذلك؛ لأنه من المحرمات في النكاح، والرد قائم على وجهين أولهما: أن زيد بن حارثة ﷺ[59] لم يكن ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحقيقة **(ابن صلب)**، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾(الأحزاب:40)، بل كان ابنه بالتبني، ثم رفع حكم التبني، فقام نسب زيد بن حارثة على حقيقته التي كان عليها، فزال بذلك مدخل الداعين لتلك الشبهة، كون زيد ابننا بالتبني لا الصلب، وكون الآية مقتصرة على تحريم حلائل أبناء الأصلاب دون غيرهم، فالقيد لدلالة، ولعل العلة في هذا الزواج هو بيان تمام رفع حكم التبني بكليته، فرُفع الحكم ونُقضت آثاره الباقية. ثانيهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مبلغ الشريعة الأول ومثالها العملي القائم بين أظهر الناس، فكان زواجه تطبيقاً عملياً لتشريع من تشاريع هذا الدين الحنيف في جواز نكاح حليلة المتبنى بعد انقضاء عدتها ولو دخل بها، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مجترئاً على الله تعالى في مخالفة أمره لهوى في نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * أَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:44-47)

الشبهة الثانية: وهي شبهة القائلين بأن زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش -رضي الله عنها- كان لهوى في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، وغرام بينهما، ويعولون بتلك الأقاويل على الروايات كتب المفسرين، ويُرَدُّ على هذه الشبهة من عدة جوانب:

1. أن جميع طرق الروايات التي وردت من خلالها سبب النزول فيها من السقط الواضح الذي يلزم عدم القبول، فهي إما مرسلة أو فيها ضعفاء ومتروكون، فالرواية الأولى مرسلة لسقط الصحابي، فقتادة تابعي وليس له سماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي السند -أيضاً- سعيد ابن أبي عروبة[60] وهو ثقة، إلا أنه كان كثير التدليس، واختلط، وروايته في هذا الموضع عن قتادة معنعنة، وفي عرف المحدثين أن رواية المعنعن مردودة إذا كانت عن مدلس، فالرواية مردودة لعدم ثبوتها، والرواية الثانية مرسلة على غرار سابقتها، وفيها ابن وهب[61] وهو من الثقات، إلا أنه وصف بالتدليس، وفي سند الرواية ابن زيد[62] من الرواة الضعفاء. فما ظنك بإسناد فيه ثقة يدلس ولم يصرح

59 زيد بن حارثة بن شراحيل قضاعة، وهو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه، أصابه سباء في الجاهلية ، وتنقل حتى جاء في رق خديجة، فوهبته للنبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين، وقال: "يا من حضر، اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه". ينظر ابن الأثير، أسد الغابة (ج2/ص350).

60 سعيد بن أبي عروبة، الإمام، الحافظ عالم أهل البصرة، وأول من صنف السنن النبوية، أبو النضر بن مهران العدوي، مولاهم البصري، كان من بحور العلم إلا أنه تغير حفظه لما شاخ. وأكبر شيخ له هو أبو رجاء، قال أبو زرعة : ثقة مأمون. وقال أبو حاتم : ثقة قبل أن يختلط، وكان من أثبت الناس في قتادة، توفي سنة 773 ه ـ ينظر سير أعلام النبلاء (413/6)، تقريب التهذيب لابن حجر (239/1).

61 عبد الله بن وهب القرشي، وقال ابن معين: ثقة، وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: صالح الحديث صدوق. تهذيب التهذيب لابن حجر، ج6/ص71-74 بتصرف.

62 عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، قال أحمد: ضعيف، وقال ابن الجوزي : أجمعوا على ضعفه تهذيب التهذيب لابن حجر، ج6/ص177-178 بتصرف.

بالسماع في هذا السند روى حديثه عن راوٍ ضعيف اتفق العلماء على ضعفه، فبذلك يكون السند غير صحيح وترد الرواية.

2. أن المتتبع للروايات في كتب التفسير يجد التناقض الصريح والاضطراب فيما بينها، ففي رواية ابن زيد التي أخرجها ابن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند بيت زيد لحاجة، ثم أتت الريح فرفعت الستر فانكشفت زينب وهي حاسرة فرأها النبي صلى الله عليه وسلم، وفي رواية محمد بن يحيى بن حبان التي أخرجها الحاكم في المستدرك وأخرجها ابن سعد في الطبقات: أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يطلب زيداً في بيته، وأن زينب خرجت له فُضلاً متكشفة، وتخالف ذلك جميعاً رواية أبي بكر بن أبي حثمة التي أخرجها الطبراني في معجمه الكبير والتي تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها، فأذنت له ولا خمار عليها، وهذا التناقض في الروايات والإضراب الجلي يدل على أنها روايات موضوعة.

3. أن مقام النبوة مقام عظيم جليل – من كَرَمَهُ الله به – يربى عن أن يدنس نفسه بهذه الفعال، فما الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من زكَّاهُ الله تبارك وتعالى؟ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4) فكل تلك المرويات الموضوعة تقدح في مقام النبوة، وتتعارض مع عصمة الأنبياء، فالواجب ردها والإعراض عنها.

4. أن نص الآية صريح في عبارته واضح في مدلوله، ليس فيه ما يدل على أي من تلك المرويات والقصص التي تزعم استحسان النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش –رضي الله عنها– بأي وجه من الوجوه.

5. أن هذا الزواج المبارك من رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش كان تحت معية إلاهية، قال تعالى:﴿ زَوَّجْنَاكَهَا﴾(الأحزاب:37)، ولو كان الأمر يحتمل أي وجه من وجوه تلك الروايات الباطلة لما كان الله تعالى ليبارك الزواج الميمون، ويرسل جبريل ليكون سفير ذلك العقد.

والقول الصحيح في هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بزواجه من زينب بنت جحش، فلما جاءه زيد يشتكي زينباً[63] وهي على ذمته، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (الأحزاب:37) في الإقدام على طلاقها أو الوقوع في عرضها بالإساءة إليك في عشرتها الزوجية، وقوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (الأحزاب:37) أي تخفي في نفسك ما أعلمك الله إياه من قبل من طلاق زيدٍ لزينب، وزواجك منها، وتخفي ذلك عن زيد مع أن الله تعالى مظهر هذا الأمر ومعلنه للناس، وقوله: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب:37)، أي تخشى ألسنة الناس أن يقولوا تزوج محمد حليلة ابنه بالتبني بعد أن حرم ذلك، والله هو الأولى والأحق بالخشية من الناس، فهو الأعلم بالمصلحة والحِكَم من تشاريعه التي شرعها لعباده.

63 /على خلاف بين المفسرين في نوع الشكاية التي جاء بها زيد النبي، وقد أثرت عدم التعرض لذلك الخلاف والخوض فيه، لاستغناء المقام وعدم الحاجة له.

المطلب الثاني/ شبهة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

الشبهة الثانية التي ثار بها المستشرقون والطاعنون في النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا الدين الحنيف، هي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ شرع ربه بأن الرجل لا يجوز له أن يجمع فوق أربع نساءٍ على ذمته، ولكن هو صلى الله عليه وسلم قد زاد عليهن ضعفهن وزيادة، بل بالغ بعضهم في ذلك واجترى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهواني وصاحب هوى متعلق بالنساء، وأن الباعث وراء ذلك التعدد هو محض إرضاء الغريزة الجنسية، يقول الكاتب المستشرق (إميل درمنغنم) في كتابه (حياة محمد): "شعر محمد في العقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء... ودخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بني النضير، وكان زيد في ذلك اليوم غائباً عن بيته، فوجد فتيات قومها، وكانت زينب هذه آنئذٍ سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض في نفس النبي، فقال: سبحان مقلب القلوب! لو ما ينطق بغير هذه الكلمة وانصرف حالاً، قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك كثيراً، وكان زيد المخلص لمحمد المنعم عليه يعلم مزاجه المتقد وبدا الوضع محيراً إلى الغاية"[64]. وغيرها الكثير من أقوال المستشرقين، مثل الدكتور (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب)، وأقوال (منتجرمري وات) في كتابه (محمد في المدينة)، وغيرها من الأقوال التي أعرضت عنها لتواطئها وتشابهها، فاكتفيت بما أوردت من كلام المستشرق (إميل درمنغنم) للرد عليه.

ولعل أنسب ما يقال إن الرد على هذه الشبهة يكون من عدة أوجه:

1. أن التعداد في الزوجات مما جرت عليه العادة عند الملوك والعظماء وعلية القوم، وباستقراء سريع لتاريخ الشعوب يظهر ذلك وبكل جلاء، "فقد عرف التعدد في شريعة (حمورابي)، بدلالة النقوشات على أحد الأحجار الأثرية في مدينة (صور) التي شملت قانونية تنظم الأسرة وكان من أهم ما فيه مادة تجيز التعدد "[65]، "كذلك نجد التعدد عند الفراعنة وخاصة الأمراء فهذا رمسيس كانت له زوجتان، وكذلك فعل تحتمس الرابع وأمنتحب الثالث وأمنتحب الرابع عندما اتخذوا – لأسباب سياسية – أميرات من بلاد بابل ومتيانى"[66].

بل كان شائعاً عند العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم ومنتشراً بينهم، وكانوا يتفاخرون بذلك، وفي حديث ابن عمر ﷺ يقول:" أَسْلَمَ غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم أَنْ يَخْتَارَ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا"[67] وقال نوفل بن معاوية: أسلمت وتحتي خمس نسوة، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال:" فارق واحدة وأمسك الباقي".

---

64 انظر الحصين، لماذا الهجوم على تعدد الزوجات ؟ (ص10).

65 انظر أبو النور، منهج السنة في الزواج (ص235).

66 انظر حسن، مصر القديمة (ج1/ص 140).

67 أخرجه أحمد في مسنده ، مسند عبد الله بن عمر (ج8/ص220/ حديث رقم 4609) ، وأخرجه الترمذي ،كتاب النكاح ، باب في الرجل يُسلم وعنده عشر نسوة (ج3/ص435/حديث 1128)، وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب النحاح ، باب باب الرجل يُسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (ج1/ص628/حديث 1953). قال عنه الأرنوطي في حاشية تحقيق مسند أحمد: " حديث صحيح بطرقه وشواهده، وبعمل الأئمة المتبوعين به".

وكان ذلك سائداً –أيضاً– في أهل الملل السماوية السابقة قبل ظهور الإسلام، فهو في اليهودية ورد في التوراة: "أن نبي الله سليمان كان له سبعمائة امرأة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء"[68]، كذلك نبي الله إبراهيم ﷺ جمع بين زوجتين هما سارة وهاجر، والتعدد كذلك من المقرر في النصرانية الصحيحة؛ لعدم وجود ما يمنع ذلك من صريح نصوص الإنجيل. فما كان شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدع من عند نفسه، بل هو مما جرت عليه العادة ووافقت فيه الشرائع المنزلة، بل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو تهذيب وتقويم لذلك العرف البشري.

ودل القرآن الكريم بصريح العبارة على إباحة التعدد في النساء، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء:3).

2. أن تلك الزيجات التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن باختياره، بل باختيار الله تعالى له وبتزويجه له، كما قال تعالى في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(الأحزاب:37)، وقد يكون ذلك التزويج لحكمة يظهر الله تعالى، أو يظهر بعض أطرافها، أو يخفيها، أو يخفي بعض أطرافها، ومدار القضية –هنا– هو الإيمان والتصديق بأنه رسول الله تعالى ولا ينبغي – وحاشاه ذلك – معارضة ربه تعالى.

3. كان لتعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالغ الأثر في نقل السنة، فهن المطلعات على الأحوال الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم والملاصقات له وأقرب الناس به، فحملن على عواتقهن ذلك الشرف العظيم، فوصل إلينا منهن جزاء كبير من سنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من كل قول أو فعل رأينه أو سمعنه من رسول الله، ويذكر الرواة أن مرويات أمهات المؤمنين قد تجاوزت ثلاثة ألاف حديث، وأن عائشة وأم سلمة لهن النصيب الأكبر منهن، فروت عائشة –رضي الله عنها– قرابة ألفاً ومئتين حديث، وروت أم سلمة –رضي الله عنها– قرابة ثلاثمائة وسبعين وثمانية أحاديث، وتتراوح مرويات باقي زوجاته، فعشن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مدة طويلة من أعمارهن يروين الحديث ويعلمن الناس، وقد كن مقصداً للمسلمين للعلم والحديث والفقه، وإذاً فعدم تسريح النبي صلى الله عليه وسلم لمَن زاد من زوجاته على الأربع لم يكن في صالحه الشخصيِّ بقدْر ما كان في صالح أزواجه هؤلاء من جهة، وفي صالح الإسلام من جهة أخرى.

لو كان النبي صلى الله عليه وسلم صاحب هوى وشهوة في النساء ومحركه في ذلك محض الغريزة الجنسية لكان استكثر من النساء في ريعان شبابه وكمال فتوته صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يتزوج في شبابه إلا أول زوجاته السيدة خديجة بنت خويلد، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى حتى وفاتها رضي الله عنها، فقضى معها خمس وعشرين سنة، ثم أنه لم يعدد في الزوجات إلا بعد أن قارب الخمسين من عمره، وله في كلٍّ من النساء التي تزوجهن حالة خاصة.

68 انظر السباعي، المرأة بين الفقه والقانون (ص71)، نقلاً عن الحصين، لماذا الهجوم على تعدد الزوجات ؟ (ص11)

كانت تلك لمحة موجزة عن تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الحكم الظاهرة من هذا التعدد، ولم نتعرض فيها بالتفصيل إلى الحكم الخفية التشريعية والاجتماعية، والإنسانية، والسياسية، التي كمنت وراء تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأننا سنخرج عن مرادنا إلى تفريعات متداخلة بحاجة إلى بحث مستقل مفصّل.

المطلب الثالث/ شبهة تحريم نكاح زوجات النبي بعده صلى الله عليه وسلم

شبهة تحريم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من نكاح أحداً بعده بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، ومستند القائلين بهذه الشبهة أن في منع زوجات النبي من النكاح بعده ظلم لهن وبخس لحقهن في التمتع مما أحل الله، فكيف يبيح الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدد في زوجاته، ويمنع زوجاته في النكاح بعده؟

وليعلم أن هذه الشبهة من الشبه الواضح بطلانها، وقد ردها علماء الأمة من عدة أوجه:

1. أن الله تعالى قد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتخيير زوجاته بين المقام في عصمته على ما هو عليه صلوات ربي وسلامه عليه من التقشف والزهد والعبادة وبين مفارقته والتمتع بمتع الحياة وزخرفها، فاخترن جميعهن الله ورسوله على الدنيا وزينتها عن طيب نفس منهن، روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها "قَالَتْ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلاَ عَلَيْكِ أَنْ لاَ تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ، قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَايَ لَمْ يَكُونَا لِيَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾(الأحزاب:28)، حَتَّى بَلَغَ ﴿ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(الأحزاب:29)، فَقُلْتُ: فِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. وَفَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِثْلَ مَا فَعَلْتُ"[69]، والمعلوم أن آية التخيير نزلت بعد آية تحريم زوجاته على أحد بعده، فكن –رضي الله عنهن– جميعاً على علم ودراية بحكم الله تعالى، ومع علمهم اخترن الله ورسوله؛ لأنه يحال عقلاً أن يتركن هذا المقام الكريم بعد ما رأينا من حسن معاملته وعشرته صلى الله عليه وسلم ويطلبن غيره.

2. أن هذا المقام مقام تشريف لهن وتكريم لجنابهن رضوان الله عليهن، فما حرم عليهن نكاح أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾(الأحزاب:53) ، إلا وحفظ لهن حقهن بمنزلة أعظم في الدنيا بأن جعلهن أمهات للمؤمنين جميعاً، قال تعالى في صدر سورة الأحزاب: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب:53)، فحرمة نكاحهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم تبع لمنزلة عظيمة أورثهم الله تعالى إياها، فأي رفعة وأي تشريف وأي تكريم ذلكم الذي نلنه رضوان الله عليهم جميعاً.

---

69 رواه الترمذي في سننه ، أبواب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الأحزاب، (ج5/ص204/حديث 3204) ، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".

3. في سبب نزول الآية أن بعض المنافقين حدث نفسه، وبضعهم حدث غيره فقال: ما بال محمد يتزوج من نسائنا، والله لئن مات محمد لنتزوجن نساءه![70] فنزلت هذه الآية تفضح هذا المنافق، وتحذر المؤمنين بأن هؤلاء نساء النبي صلى الله عليه وسلم محرمات حرمة مؤبدة، فزوجة النبي صلى الله عليه وسلم إذا توفي عنها فهي محرمة أبداً على جميع المؤمنين، فالآية لم تنزل ابتداءً لتأصيل حكم شرعي؛ وإنما هي لحادثة واقعة، فما بالك برجل يعلن جهاراً رغبته في الزواج من امرأة هي على ذمة رجل آخر بعد موته، فهي أشد وهي في حق زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمع ذلك، وهو الغيور شديد الغيرة، روى مسلم في صحيح من حديث سعد بن عبادة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني..."[71]، فكان نزول الآية والحكم تهذيباً للمؤمنين، وتقويماً لهم، وتحذيراً للمنافقين من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بأي وجه.

4. أن من حكم الله تعالى أن الله لما أمر رسوله بتخييرهن بين الله ورسوله، وبين نعيم الدنيا وزينتها، فقدمن الباقي على الزائل، واخترن الله ورسوله وما أعده لهن من الأجر العظيم، فجازاهن بما قدمن من قبولهن عيشة النبي صلى الله عليه وسلم على التقشف والزهد وعدم نكاح أحد بعده من الرجال، "بأن حظر على رسوله صلى الله عليه وسلم النساء غيرهن وقنعه بهن وحظر عليه تبديلهن، ونسخ بذلك ما أباحه له قبل من التوسعة في جميع النساء"[72]، قال تعالى: ﴿ لايَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾(الأحزاب:52)، فجازى الله زوجات النبي صلى الله عليه وسلم على صنيعهن خير جزاء، بأن نهى نبيه عن غيرهن، والاكتفاء بهن رضوان الله عليهم جميعاً.

5. أن الله تعالى اختار لهن الأليق لما يناسبهن من رفعة المقام في الدنيا، وأعقب ذلك بخير المنزلة وخير الصحبة في الآخرة، فهن من اختارهن الله تعالى ليكن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا، وزوجاته في الآخرة، فالمرأة في الجنة لآخر زوج كانت على ذمته في الدنيا، "قال حذيفة لامرأته: إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها"[73]، فالله جل وعلى قد كرم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتران بأشرف خلقه، وأطهرهم، وخير رسله، وأشرفهم، خاتم النبيين والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كرامة ورحمة وهدية وفضل من الله لهن –سلام الله عليهن ورضوانه عليهن– ما لنساء العالمين من هذا الفضل، فهل يعقل أن يفضل أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستبدل من هو خير بمن هو دونه ؟

70ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القران (ج14/ص228).

71 أخرجه البخاري في صحيح ، كتاب النكاح، باب الغيرة (ج7/ص35/حديث 5219)، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل (ج2/ص1136/حديث 1499).

72 ينظر ابن عطية، المحرر الوجيز (ج4/ص394).

73ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج14/ص229).

فالله عز وجل قد جعل من حكمه أن حرم على كل أحد أن يكون له ميل في نكاح أحد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، حفظاً لمقام النبي صلوات ربي وسلامه عليه منهن، وتكريماً وتشريفاً لهن على تقديمهن الله ورسوله على الدنيا ونعيمها، فهن الطاهرات أمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي ارتضاهن الله تعالى لنبيه –عليه الصلاة والسلام– في الدنيا والآخرة، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

الخاتمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على خير من صلى وصام، محمد خير الأنام، وآله وصحبه الكرام... وبعد:

فبعد هذه الصحبة لآيات الكتاب العزيز، ومدارسة سورة الأحزاب، والوقوف على دلائل رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته الطاهرات، واستشعار عظمة النبي –صلوات ربي وسلامه عليه– عند الله تعالى، وكيف كرم الله جل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بوصفه في السورة بأبلغ أوصاف الكمال، فقال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾(الأحزاب:45) ، وتبوء أسمى المراتب وأعلاها: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب:21)، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾(الأحزاب:40)، ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(الأحزاب:6)، والوقوف على مطاعن أهل الهوى والباطل التي طالوا بها جناب خير الورى محمد صلى الله عليه وسلم، وإجلاء تلك الشبة التي تحجب نور الحقيقة عن القلوب، لنصل في نهاية المطاف إلى الحقيقة المطلقة، والاعتقاد اليقيني الصادق بأن محمد بن عبد الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وخير خلق الله أجمعين، وأن الله تعالى قد حفظ لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم منزلة عظيمة القدر، رفيعة المكانة، عنده سبحانه وتعالى وعند الناس، مكانة لا يدنسها ظن جاهل، أو قول منافق، أو ادعاء مبغض. فالعلم بتلك المكانة العظيمة الشريفة التي من الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم تورث في القلب طاعته ومحبته؛ فيزيد بذلك الإيمان ويبلغ كماله، عن أنس، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» [74].

فاللهم ارزقنا محبتك ومحبة نبيك صلى الله عليه وسلم، واجعلنا من أحبابك وأحباب رسولك، وأسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يعظم محبة رسوله في قلوبنا، وأن يجعل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم عندنا من محبة أنفسنا وأهلنا، وآبائنا وأمهاتنا، وأزواجنا وبناتنا، وأن يجعل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم طمأنينة قلوبنا، وانشراح صدورنا، وأن يجعل محبته عوناً لنا على طاعة الله – عز وجل – وحُسن الصلة به؛ إنه – سبحانه وتعالى – ولِيٌّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

74 أخرجه البخاري في صحيحه ، في" كتاب الإيمان" "باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان" (ج1/ص12/حديث 15)، واللفظ له ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد، والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة (ج1/ص67/حديث 44) ، وفي روايته: (حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين).

النتائج

توصلت الدراسة إلى مجموعة من نتائج ليست نهاية ما يمكن الوصول إليه، وإنما ثمرة قراءة دؤوبة، وتتبع واستقراء لدلائل رفعة المقام الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته من سياق الآيات، ويمكننا إجمال أهم النتائج فيما يأتي:

1. أن مقام النبي صلى الله عليه وسلم مقام عظيم، اختص الله به نبيه صلوات ربي وسلامه عليه دون غيره، وبالغ في تشريفه بدلالة سياقات الآيات، ابتداءً من مناداته بوصف النبوة في مطلع السورة، مروراً بالولاية العامة التي أورثها الله نبيه على سائر المؤمنين، ثم أعقبها بالمرتبة العظمية مرتبة الأسوة الحسنة لجميع المؤمنين، وغيرها من دلائل التعظيم التي تعرض لها البحث في ثناياه.

2. توصل الباحث إلى أن كل نداء للنبي صلى الله عليه وسلم جاء بوصف النبوة له دلالة خاص به يمكن معرفتها من سياق الآيات، وموضع النداء في السورة.

3. وجد الباحث أن الله تعالى قد فضل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وكرمهن بمنزلة خاصة في الدنيا والآخرة، وهي منزلة تبع لمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم نلنها -رضوان الله عليهن- لتقديمهن الله ورسوله على الدنيا ونعيمها الزائل.

4. أن الله عز وجل قد تكفل برفع الحرج عن نبيه في كل الأمور والتشريعات التي ألزمه بها، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾(الأحزاب:38) ، فما فرض الحكيم العليم تشريعاً إلا لحكمه بالغة منه سبحانه وتعالى.

5. توصل الباحث إلى الموقف الحقيقي من الشبهات والافتراءات والأباطيل التي يُرمى بها النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته الأطهار كذباً وبهتاناً، من ردها وتنزيه مقام النبي العظيم عن مثل تلك الأقاويل الباطلة؛ لأن الله تعالى قد حلى نبيه صلى الله عليه وسلم بجميل الخلق بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4) فهي شهادة من الله تعالى على كمال خلق النبي صلى الله عليه وسلم وتنزيهه عن كل نقص.

التوصيات

تمخضت الدراسة عن مجموعة من التوصيات منها:

1. دعوة المؤسسات البحثية، ممثلة في الباحثين المتخصصين في مجال القرآن الكريم وعلومه إلى العناية بالمقام النبوي من خلال سياقات القرآن الكريم، ومحاولة استجلاء الحكم من ورائه، والعمل على تبسيطه وتقريبه لأفهام العامة.

2. ظهرت كثير من كتابات المستشرقين التي تطعن في المقام النبوي الشريف على صاحبه أفضل صلاة وأتم تسليم، ولذا تدعو هذه الدراسة الباحثين، وتستحث أقلامهم تجاه هذه الكتابات، والرد عليها دفاعاً عن هذا الجناب العظيم جناب النبي صلى الله عليه وسلم.

يرى الباحث أن هذه الدراسة ليست هي نهاية ما يمكن الوقوف عليه من أوجه بيان رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم، وإنما هي خطوة في هذه الطريق، فهي دعوة للباحثين لخوض غمار هذا المضمار العظيم، ونيل ذلك الشرف الكبير.

المصادر والمراجع

القران الكريم.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، (1414هـ)، ***صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان***، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط2، بيروت-لبنان، مؤسسة الرسالة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر ابن كثير، (1388هـ)، ***تفسير القرآن العظيم***، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي.

الأحمدي، أبو النور محمد (2012م)، ***منهج السنة في الزواج***، ط6، حلب-سوريا، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

البقاعي، إبراهيم بن عمر، (1425هـ)، ***نظم الدرر في تناسب الآيات والسور***، ط1، القاهرة-جمهورية مصر العربية، دار الكتاب الإسلامي، نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع.

التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، (1984م)، ***التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"***، (د. ط)، تونس، الدار التونسية للنشر، نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع.

حسن، سليم حسن، (2001م)، ***مصر القديمة***، ط2، وكالة الصحافة العربية، الجيزة-جمهورية مصر العربية.

الحصين، أحمد الحصين، (1410هـ)، ***لماذا الهجوم على تعدد الزوجات ؟***، ط1، طنطا- جمهورية مصر العربية، دار الضياء للنشر والتوزيع.

الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، (1420هـ)، ***مختار الصحاح***، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5، بيروت، صيدا- لبنان، المكتبة العصرية - الدار النموذجية.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، (1421هـ)، ***التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب***، ط1، بيروت- لبنان، دار النشر: دار الكتب العلمية .

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (1407هـ)، ***الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل***، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (د. ط)، بيروت- لبنان، دار النشر: دار إحياء التراث العربي.

الصابوني، محمد علي، (1417هـ)، ***صفوة التفاسير***، ط1، القاهرة- جمهورية مصر العربية، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، (1384هـ)، ***الجامع لأحكام القرآن***، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة- جمهورية مصر العربية، دار الكتب المصرية.

قطب، سيد قطب، (1406ه)، ***في ظلال القرآن***، (د. ط)، جدة- المملكة العربية السعودية، دار العلم للطباعة والنشر.

الكرماني، محمود بن حمزة الكرماني، (د. ت)، *غرائب التفسير وعجائب التأويل*، (د. ط)، جدة- المملكة العربية السعودية، دار القبلة للثقافة الإسلامية.

مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، (1408هـ)، *صحيح مسلم بشرح النووي*، ط3، (د. م)، دار إحياء التراث العربي، عالم الكتب.

مسلم، مصطفى مسلم وآخرون، (1431هـ)، *التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم*، ط1، الإمارات العربية المتحدة، جامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي.

النيسابوري، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، (1395هـ)، *أسباب النزول للواحدي*، ط2، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية.

الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، (1421 م)، *تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن*، ط1، بيروت – لبنان، دار طوق النجاة.

قائمة المراجع المرومنة:

The Holy Quran.

Ibn Habban, Muhammad Ibn Habban Ibn Ahmad Abu Hatim al-Tamimi al-Basti, 1414 AH, *Sahih Ibn Hibban*, arranged by Ibn Balban, (In Arabic), Investigated by: Shuaib Al-Arnaout, Volume 2, Beirut - Lebanon, Al-Resala Foundation.

Ibn Kathir, Ismail bin Omar Ibn Kathir, 1388 AH, *The Interpretation of the Great Qur'an*, Investigated by: Sami bin Muhammad Salama, Volume 2, Beirut, Lebanon, House of Revival of Arab Heritage.

Al-Ahmadi, Abu Al-Nour Muhammad (2012 AD), *The Sunnah approach to marriage*, Volume 6, halab - Syria, Dar Al-Salaam for printing, publishing, distribution and translation.

Al-Beqa'i, Ibrahim bin Omar, 1425 AH, *Nazm Al-Durar in proportion to verses and surahs*, Volume 2, Cairo, Arab Republic of Egypt, Dar Al-Kitab Al-Islami, electronic version.

Al-Tunisi, Muhammad Al-Taher bin Muhammad bin Ashour, (1984 AD), *Al-Tahrir and Al-Tanweer "Editing the Right Meaning and Enlightening the New Mind from the Interpretation of The Holy Book"*, (D. I), Tunis, Tunisian Publishing House.

Hassan, Salim Hassan, (2001 AD), *The Old Cairo*, 2nd floor, Arab Press Agency, Giza - Arab Republic of Egypt.

Al-Hussain, Ahmed Al-Hussein, (1410 AH), *Why the attack on the prophet's polygamy?*, Volume 1, Tanta - Arab Republic of Egypt, Dar Al-Diaa for Publishing and Distribution.

Al-Razi, Zain Al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Abi Bakr bin Abdul Qadir Al-Hanafi, (1420 AH), *Mukhtar Al-Sahah*, the investigation by: Youssef Sheikh Muhammad, 5th floor, Beirut, Sidon - Lebanon, Al-Asriya Library - Al-Dar alnamozajeiah.

Al-Razi, Fakhr Al-Din Muhammad bin Omar Al-Tamimi Al-Razi Al-Shafi'i, (1421 AH), *The Great Interpretation or the Keys to the Unseen*, Volume1, Beirut - Lebanon, Publishing House: Scientific Books House.

Al-Zamakhshari, Abu Al-Qasim Mahmoud bin Omar Al-Zamakhshari Al-Khwarizmi, (1407 AH), *Al-Kashf about the facts of revelation and the eyes of gossip in the faces of interpretation*, investigated by: Abdul Razzaq Al-Mahdi, (d. I), Beirut - Lebanon, publishing house: Arab Heritage Revival House.

Al-Sabouni, Muhammad Ali, (1417 AH), *Safwat Al-Tafseer*, Volume 1, Cairo - Arab Republic of Egypt, Dar Al-Sabouni for printing, publishing and distribution.

Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmed bin Abi Bakr, (1384 AH), *The Collector of the **ahkam of the Qur'an***, achieved by: Ahmed Al-Baradouni and Ibrahim Atfayesh, Volume 2, Cairo - Arab Republic of Egypt, Egyptian Book House.

Qutb, Sayyid Qutb, (1406 AH), ***In the Shadows of the Qur'an***, (d. I), Jeddah - Saudi Arabia, Dar Al-Ilm for Printing and Publishing.

Al-Kirmani, Mahmoud bin Hamza Al-Kirmani, (d. I), *The Oddities of Interpretation and the Wonders of Interpretation*, (d. I), Jeddah - Saudi Arabia, Dar Al-Qibla for Islamic Culture.

Muslim, Imam Muslim Bin Al-Hajjaj Bin Muslim Al-Qushayri, (1408 AH), *Sahih Muslim*, Sharh Al-Nawawi, Volume3, (d. I), House of Revival of Arab Heritage, World of Books.

Muslim, Mustafa Muslim and others, (1431 AH), *The objective interpretation of the **surahs of the Holy Qur'an***, Volume1, United Arab Emirates, University of Sharjah, College of Graduate Studies and Scientific Research.

Al-Nisaburi, Abi Al-Hasan Ali bin Ahmed Al-Wahidi, (1395 AH), *The Reasons for Going Down by Al-Wahidi*, Volume2, Beirut - Lebanon, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.

Al-Harari, Muhammad Al-Amin bin Abdullah Al-Armi, (1421 AH), *The Interpretation: the Gardens of the Spirit and the Basil in Rawabi Ulum Al-**Qur'an***, Volume1, Beirut - Lebanon, Dar Touq Al-Najat.